مجلة «الحياة النيابية»
مصدر غنى متجدّد من خلال مذكرات جرجس صفا نعمة[1]

رياض غنام[*]

تعُدُّ المذكرات أحد أبرز المصادر الأساسية للعملية التأريخية، وقد تكون بحد ذاتها المصدر الأساسي الأول، نظراً لأهمية صاحبها وموقعه في الحدث التاريخي، كما هو الحال في مذكرات جرجس صفا نعمة. ففي السنة التالية لدخولي الحياة الوظيفية في مجلس النواب سنة ١٩٧٢، نُشر في مجلة «الحياة النيابية» التي أنشأتها رئاسة مجلس النواب، وفي العددين الرابع، والخامس لسنتي ١٩٧٤ و١٩٧٥، مذكرات رجّح آنذاك ناشرها المؤرّخ يوسف ابراهيم يزبك في العدد الرابع، انها للقاضي جرجس صفا نعمة، ثم عاد في العدد الخامس، ليجزم ويؤكد انها للقاضي المذكور، استناداً إلى نص صريح ورد في المذكرات عينها. الأمر الذي يؤكد ان المؤرخ يزبك لم يطّلع على المذكرات كاملة، إلا عند الإعداد للعدد الخامس من المجلة النيابية المذكورة.

احتفظت بأعداد المجلة النيابية كاملة، وخصوصاً العددين المتضمنين المذكرات أكثر من ثلث قرن من الزمن، ولا أخجل من الاعتراف باني لم اعرف قيمة هذه المذكرات إلا بعد إعادة قراءتها، وانصرام هذه المدة الطويلة، أنهيت خلالها دراستي الأكاديمية في علم التاريخ، كما وضعت بعض الأبحاث والدراسات المتعلقة بهذا العلم، وخصوصاً ما يختص بتاريخ لبنان الحديث بدءاً من الإمارة الشهابية وصولاً إلى الفترة المعاصرة.

ولا يخفى ما للمذكرات من الناحية المنهجية، من أهمية في الكتابة التاريخية. فعند فقدان الوثائق الأساسية تصبح المذكرات وخصوصاً مذكرات القادة العسكريين والدبلوماسيين والرحالة والسياسيين والتجار وكبار الموظفين وغيرهم النموذج الواضح وربما

(١) مقدمة كتاب مجلة «الحياة النيابية من خلال مذكرات جرجس صفا نعمة» ـ صدر للدكتور رياض غنام ـ دار معن، ٢٠١٣.

(*) مدير عام شؤون الجلسات واللجان ـ مجلس النواب.

الوحيد لتسجيل الواقع كما هو، ولإبراز الوصف الدقيق للحياة السياسية وخصوصاً الاجتماعية منها على اختلاف أشكالها وأنواعها ودقائق تفاصيلها، وهو الأمر الذي ينطبق على حال المذكرات التي بين أيدينا.

وفي معرض ملاحقة جذور هذه المذكرات، يذكر المؤرّخ يزبك ان شارل داوود عمون (١٩٠٦ ـ ١٩٦١) حصل على مجموعة أوراق عددها مئة وستّ وسبعون ورقة متناثرة، خطها وحبرها غير القديم، يدلان على انها منسوخة عن مخطوطة أخرى، وكتابتها على وجه واحد، طول الصفحة منها ٢٢ سنتيمتراً، وعرضها ١١ سنتيمتراً وعدد سطورها يتراوح بين ٢٢ أو ٢٥ سطراً، وفي كل سطر ثماني أو عشرة كلمات، وجملها كلها متتابعة متلاحقة على الأسلوب القديم، لا فواصل بين الكلمات، ولا نقط كما كانت تكتب وثائق الحجج والمخطوطات القديمة.

ويبدو ان المؤرّخ يوسف ابراهيم يزبك، نشر هذه المذكرات في مجلة «الحياة النيابية»، ولو كانت مجلته «أوراق لبنانية» لا تزال قيد الصدور، لكان نشرها فيها. وقد جاء نشرها كما ذكرنا في العددين الرابع والخامس، وفي ما مجموعه نحو ٤٥ صفحة من القطع الكبير، وعلى عمودين في كل منهما نحو ٤٤ سطراً، وفي كل سطر ما بين ثماني أو عشر كلمات، وقد أعطى لكل من الفقرات وموضوعاتها عنواناً يدل على مضمون معناها.

من المؤكد ان جرجس صفا نعمه لم يعط عنواناً لمضامين مذكراته، وإنما هي من وضع المؤرّخ يوسف ابراهيم يزبك، وقد أبقينا على تلك العناوين كما وردت في مجلة «الحياة النيابية»، وهي مأخوذة أما من النص الوارد في المذكرات، أو مستوحى من المضمون، وهي ولا شك تسّهل عملية الرجوع إلى مضمون المذكرات، وما حوته من معلومات وتفاصيل على قدر كبير من الأهمية.

ولا يخفى اننا حاولنا تقصي مصدر المذكرات من خلال مراجعة العميد الركن ادونيس نعمه ابن دير القمر، والقيّم على مكتبة والده المرحوم جوزيف نعمه، إلا اننا لم نحصل على أي نص أساسي يتعلق بمخطوط المذكرات، غير انه زودنا مشكوراً ببعض التفاصيل الإضافية عن حياة صاحبها مع بعض الصور، ورسالة بخط يده وكلها على قدر كبير من الأهمية والندرة.

لقد قمنا بتحقيق شامل لكل ما ورد في متن النص من ألفاظ ومصطلحات دخيلة وعامية، فضلاً عن سِيَرْ وتراجم الشخصيات الواردة في المذكرات، كما أوردنا بعض المعلومات العامة عن القرى والمدن، والمناطق والمقاطعات، وأوضحنا بعض ما غَمض من الألفاظ والمعاني وشرحنا بعض العبارات، وقومنا ما التبس من النصوص والمفردات، وكل ذلك في الهامش، أو وضعناه بين قوسين مع الأمانة بالإبقاء على المتن كما ورد أصلاً.

لقد قام يوسف ابراهيم يزبك، بإيضاح وتفسير جزء يسير من المذكرات عند نشرها لأول مرة في مجلة «الحياة النيابية». وحفاظاً على الأمانة التاريخية لما قام به، فقد أبقينا على كافة النصوص التي أوردها، وميّزناها عن الهوامش التي وضعناها شخصياً، بوضع نجمة مقابلها، في حين ميّزنا الهوامش التي شرحناها شخصياً بالأرقام التسلسلية. كما اننا نشرنا في الجزء الأول من كتابنا هذا مذكرات العدد الرابع من مجلة الحياة النيابية، وفي الجزء الثاني مذكرات العدد الخامس والذي يبدو واضحاً ان صاحبها لم يستكمل كتابتها لأسباب نجهلها بدليل ما أورده المؤرّخ يوسف ابراهيم يزبك في نهاية الجزء الثاني قوله «هنا وقف الكاتب، ولسنا ندري ما إذا كان لهذه الطرائف والنوادر

تكملة، ام ان الشيخوخة منعت صاحبها «التوراة المشلعة» من متابعة الكتابة».

ان التشوش الموجود في بعض فقرات المذكرات، يدفعنا إلى الترجيح ان النص لم يصل إلينا بالصيغة الأولية التي وضعها المؤلف، فاختلط لدينا ما هو من صياغة صاحب المذكرات، وما هو من إضافة الناسخ أو حذفه، خصوصاً ان هناك جملاً مقطوعة، وعبارات مبتورة يدل قطعها أو بترها على «أن الناسخ قد انتقل من سطر إلى ثالث، ساهياً عن السطر الثاني الذي بينهما، فضاع بعض المعنى. وقد يكون المؤلف هو صاحب هذا السهو في تبييض كتابته».

اما بما يتعلق بصياغة المذكرات وأسلوبها، فقد غلب عليها أسلوب السرد الركيك، فلم يبال كاتبها ببلاغة الإنشاء أو المحسنات اللفظية، فجاءت أقرب إلى ما يفهمه العامة مبنى ومعنى، اما لجهة المضمون فقد جاءت غنية لجهة ما كانت تحفل به الحياة السياسية في فترة المتصرفية، وخصوصاً إبان حكم المتصرفين الأوائل، إذ ان هناك لوحات وصوراً جاءت بأدق تعابيرها، مجسدة واقع الحياة السياسية، وما هي عليه من بدائية وعفوية لجهة تصرفاتهم مع العامة أو الخاصة، وما كانت تنطوي عليه نفوسهم من طيبة حتى السذاجة، أو جبروت وقسوة ونظافة كف، وهي صفات أساسية في رجال الدولة العظام.

وفي المذكرات أيضاً معلومات غنية عن حياة الجبليين، وصوَر عن عاداتهم وتقاليدهم وطبقاتهم الاجتماعية، وحرصهم على حفظها وعدم التعرّض لها، فضلاً عن مباذل المتصرفين وبعض معاونيهم من موظفين وعامة. كما انها تتضمن لمحات عن المرتبات التي كان يتقاضاها موظفو الإدارة، وأسعار بعض الحاجيات، واهم مطبوخات السكان وحلوياتهم، وخصوصاً أهل الدير منهم.

ان أهمية هذه المذكرات تكمن في انها جاءت شهادة معاصرة من أحد أعمدة القضاء في عهد المتصرفية، ومن ابن بلدة دير القمر الأكثر التصاقاً بالحكّام المتصرفين. فكما عرف الناس المتقاضين والمتخاصمين، فقد عرف الحكّام فعاشرهم عن قرب، وخَبُرَ مكامن القوة والضعف فيهم، وما تنطوي عليه نفوسهم من مشارب وأهواء، فشهد في مذكراته شهادات حق دون غرض أو محاباة، ودون عصبية أو تحيّز، وهذا يظهر في موقفه من قضية نفي المطران بستاني، ومن المطران الدبس، وتبنيه لسياسة رستم باشا الذي بدا في نظره أقرب ما يكون إلى مثال رجل الدولة، وهو في ذلك مصيب إلى درجة كبيرة، ولم يأخذ عليه سوى كبريائه وعجرفته، وهو في ذلك مصيب أيضا، مما يؤكد بنظرنا على الأقل صحة الأحكام التي كان يطلقها رستم.

لم يدوّن جرجس صفا وقائع مذكراته أثناء حصولها، ويبدو لنا انه دوّنها على مراحل، وفي فترات متقطعة خصوصاً في أواخر حياته، لذلك لم تأت متسلسلة من حيث تاريخ وقوعها، ولا متماسكة من حيث الموضوعات والحوادث، فافتقدت إلى التسلسل المنهجي الزمني والموضوعي، وقد شابها الكثير من الترداد والتكرار، فقد كرر بعض الوقائع والأحداث دون انتباه لتعرضه لها سابقاً، فجاءت على ذات المضمون، ولكن بإنشاء وصياغة مختلفين، وقد يكون سبب ذلك كتابته للمذكرات في فترات متعددة، منها ما هو أثناء المتصرفية، ومنها ما هو بعدها في فترات لاحقة بعد إعلان لبنان الكبير، أو قيام الجمهورية اللبنانية. وقد تأكد لنا ذلك في عدة أماكن فهو لا يتكلم عن متصرفية جبل لبنان، وانما عن لبنان، والمعروف ان لبنان ككيان سياسي ودولة لم يعرف بذلك إلا بعد سنة ١٩٢٠.

ان ما شاب المذكرات من هنات في المعنى

والمبنى، لا يقلل من الأهمية التي هي عليه، والغنى الفريد الذي تتميز به، فضلاً عن ان قراءتها المشوقة تواكبها روح النكتة والدعابة في محطات كثيرة.

والمذكرات تحتوي أيضا على فوائد عديدة، وخصوصاً لجهة الإطار العام، فهي تعطي صورة مفصّلة عن إدارة حكومة المتصرفية الإيجابية منها والسلبية، وأخلاق المتصرفين وحالاتهم النفسية، وسلوكيتهم في فترات الضيق والأزمات، أم الفرح وطيب المسامرات، وتأثير القناصل والمترجمين على الحكّام، ومراعاة خواطر ومداخلات رجال الدين، ونفوذهم في الأحكام وغير ذلك مما يكتشفه القارئ. كذلك تلامس المذكرات بعض القضايا الكبرى، كقضية الأرمن وموقف السلطنة منها، وإعدام جمال باشا، لبعض الوطنيين من أبناء البلاد كالأخوين فريد وفيليب الخازن ويوسف الهاني، وعلاقة رستم باشا بمدحت باشا، وملابسات إعدام هذا الأخير، ومسألة عصمة البابا.

وتنم المذكرات عن ثقافة كاتبها، فهو لا يكتفي بسرد الوقائع وتسجيل التفاصيل، بل ينتقل إلى إطلاق الأحكام، فيغلب المصلحة العامة على الخاصة، ويعضد الحاكم في مواقفه على رجال الدين والإكليروس، شاجباً تدخلهم في شؤون السياسة، ومناصرتهم لأعوانهم على حساب العدالة والحقانية، ذاكراً أكثر من حادثة مداخلاتهم للعفو عن جرائم قتل، وغير ذلك، مبدياً خلاصة رأيه برستم باشا والاكليروس الماروني بقوله: «ان أهالي لبنان، ولاسيما الإكليروس الماروني، أضاعوا فرصة ثمينة في جهلهم وتعصبهم، فبدلاً من أن يتقربوا من رستم باشا، ويكونوا موالين له، وتنتفع بلادهم من همته وعدله، جعلوه ان يفرغ عليهم كلما أوتي من حقد وانتقام وبغض واحتقار وتأخير في تقدّم بلادهم وعمرانها، وقد ندموا، ولكن كما يقول المثل، بعد خراب البصرة سامحهم الله وأصلحهم وأنار عقولهم، وخاصة عقول زعمائهم».

وتتميّز المذكرات بميزتين ملفتتين تستحوذان معظم الصفحات التي دوّنها الكاتب، الأولى شخصية المتصرف رستم باشا، إذ هي محور المذكرات وعمودها الفقري، وهو من أكثر الشخصيات عطفاً وتمايزاً لدى الكاتب، ولا عجب في ذلك طالما ان جرجس صفا عاشره عن قرب، وعمل معه في معالجة الكثير من القضايا والمسائل، وكان يحوز على ثقته والإعجاب به، ويرى فيه انه الحاكم الأمثل لبلد مثل جبل لبنان، ولم يكن يرى فيه من نقص ومثالب سوى عجرفته وكبريائه، مبرراً له ذلك نتيجة قبوله نصيحة أحد الأشخاص المقربين منه. والثانية بلدته دير القمر، إذ يمكن اعتبار المذكرات جزءاً من تاريخ الدير نظراً للمعلومات الواردة عنها، والشخصيات المدرجة في متنها ولا لزوم للتذكير بها، وتكفي الإشارة إلى ذكره بعض أسماء المعلمين أو الحجاب أو غير ذلك من عامة الناس، ولا عجب في ذلك طالما ان الكاتب هو ابن بلدة الدير، واحد أهم عائلاتها وشخصياتها المميزة.

لا أريد أن استرسل في وصف مضمون المذكرات، او ان استبق القارئ في الكشف عن مضمونها مفضلاً ترك ذلك إليه، من خلال اطلاعه على نصوصها المشوقة. إلا انه لا بد من الإشارة، واستكمالاً للفائدة، فقد ألحقنا بالكتاب بعض الملاحق المتعلقة بسِير المتصرفين المذكورين في المذكرات، كما قمنا بوضع فهرس بأسماء الأعلام والأماكن الواردة في متن النص الأساسي. وتعريفاً بصاحب المذكرات فقد أوردنا ترجمة مفصلّة عنه، وهي ترجمة من شأنها ان تشكّل مع المذكرات كلاً لا يتجزأ، وقد تساهم في إيضاح شخصية الكاتب، ومدى تمرسه في الحياة السياسية والقضائية، وعمق ثقافته، ومدى الوعي الاجتماعي

والإنساني الذي بلغته إحدى أهم شخصيات حقبة متصرفية جبل لبنان.

ان نشر مذكرات جرجس صفا نعمة، وتحقيق ما ورد فيها، من شأنه ان يغني فترة المتصرفية، نظراً لما تضمنته من معلومات لا نجدها في سائر مصادر تلك الفترة، إذ يجد فيها الباحث السياسي العديد من المعلومات الفريدة عن الحياة السياسية للمجتمع الجبلي، كما يجد فيها الباحث الاجتماعي الكثير من مظاهر الحياة الاجتماعية والثقافية، ويجد فيها القارئ العادي مطالعات، تتسم بالمتعة والتسلية مقرونة بالاستمتاع الذي لا يخلو من فائدة، كل ذلك كان يدفعنا الى نشر هذه المذكرات، آملين ان نكون قد أغنينا المكتبة اللبنانية، وبالتالي العربية بكتاب سيحتل دون شك موقعه المميز، والله من وراء القصد.